رغمًا عن أنف هيغل ؛ سيوران فيلسوفًا

نديم نجدي

إن الالتباس الحاصل في تمييز الفيلسوف من غير الفيلسوف ليس جديدًا، طالما أن لا معايير محددة للفضاء الفلسفي المفتوح دومًا على أفق التفكير بما لم يفكر فيه من قبل... فالاشتغال بالفلسفة ليس مهنة، إنما هو عزاء قلّة من المتورطين بالبحث عن السبيل الأنجع للتخلص من لعنة إحساسهم المفرط بالذي لا يحس به الآخرون. وعليه، فالذات المتفلسفة لم تعد عقلًا خالصًا ـ حتى لو كانت كذلك ـ فتفكيرها ليس معزولًا عن علة انفعالها بالمُعضلة الوجودية التي أدت إلى الامتلاء إما بإجابة تامة عند فئة من الفلاسفة المتفائلين، وإما بأسئلة متشككة عند فئة الارتيابيين، مؤدى ذلك إلى تشاؤم عند المحبطين من استلاب البشرية كلها، ومن ثم أخيرًا إلى اللهو بلعبة الميتافيزيقا عند الماروائيين.

لسنا بوارد التعرض لمقام الفيسلوف، ولا لأبهته في عرضنا لتحولات التفلسف الآيل إلى سلخ الفلسفة عن علة نشأتها، لتصير انهمامًا مغايرًا عما كانت تمليه حصرية التوجه إلى الكلي والميتافيزيقي. فالفلسفة كائن حي، وليست موضوعًا صلدًا لا يتأثر ولا ينفعل، ومع هذه الحال، من الطبيعي أن تخضع من خلالنا إلى ما يؤثر فيها؛ إن على مستوى الاستهداف وآلية المعالجة، وإن على مستوى العدول عن موضوعات، أو التبدل في القناعات. فهي تتأثر بقدر ما تؤثر في الإنسان المعاصر المهزوم من فجيعة الإجابات التاريخية الخاوية من أي معنى. فالدهشة التي استولدت مسوغات امتلاء المعنى عند الإغريق، لا تماثل صدمة المعاصرين بهذا الفراغ الرهيب الذي لم ينجم عن تدميرات نيتشه وتقويضات شوبنهور فحسب، بل عن شدة الإحباط الذي يعقب اكتشاف المرء اللامعنى في كل الآمال المعلقة على الحكايات الميتافيزيقية الكبرى.

إلّا أن الثابت في الفلسفة يتمثل بانفعالها الدائم، إما بالدهشة، أو بالصدمة، وفي كلتا الحالتين احتاجت إلى دافع ينبع من الذات إلى الموضوع. نجهل كيف انتهج تطور المعرفة من بعدها مسارًا عكسيًا، ليصير الموضوع مصدرًا لوجود الذات والتفكير، على النحو الذي فكرت فيه بالموجود، باعتباره هو الأصل الأول والأخير للحكاية كلها. ولعلّ الإحالة المغلوطة انبثقت من عسر المسعى، إن لم نقل استحالته، فبقي الخيار الأوحد للتنصل الحميد الذي أحال التفكير بالوجود على ما قرره فلاسفة النسق العقلاني، إلى نعمة قدرية خارج الذات، لعلة موجودة بحكم الضرورة المنطقية لفاعل ما. إن تطور المعرفة لم يطوِّر سوى الحيثية التي يتظهر فيها جهلنا بالموضوع (الوجود المطلق). وعليه، فلنعد إلى براءة الأصل، لنجد الاشتقاق اللفظي لمعنى الفلسفة (محبة الحكمة) تفي بمطلوب القياس الوصفي عند فيلسوف مثل سيوران. لم تطوبه المعايير التقليدية للفلسفات الجامعية فيسلوفًا، ليس لأنه كلبي وغير مؤمن فقط، بل لأنه متمرد على السيستام كله الذي بموجبه يتم منح لقب فيلسوف لهذا، وحرمانه عن ذاك، فكيف إذا كان سيوران خارج الموضوع من أصله، ولا يهتم بما نضيفه على أفعالنا من قيمة تهمه طالما أنه يعيش في فضاء اعتباري أخر لا يمت إلى منظومة سعادتنا وأحزاننا بأي صلة. وهل من حكمة أشد من التأمل بمباعث الحياة ومآلاتها المأسوية؟ هل من حكمة أكبر من الاستغراق في التفكير بجدوى العيش وسط هذا الخراب الذي بنى عليه الإنسان أكذوبة وجوده العظيم؟ "ليس من موقف أكثر زيفًا من أن نفهم ونظل أحياء"[1].

ربّ قائل، إن المأخذ على سيوران هو نعيه الدائم، ترويجه للهزيمة، انحيازه للشر، ازدوائه للمباهج، سوداويته، تشاؤمه، وسخطه حتى على نفسه. ليس لأنه كائن حي، بل لأن البشر من أسوأ أصنافها في قوله: "إذا عرفنا أنفسنا جيدًا دون أن نحتقرها بشكل كامل، فما ذلك إلا لأننا متعبون أكثر من أن ننغمس في مشاعر قصووية"[2]. لم يخطر على بال سيوران أنه امتثل بذلك لدعوة سقراط وعزيمته لاغتراف المعرفة الكلية من منطق ـ أعرف نفسك بنفسك، فكان أن انغمس داخل نفسه للتعرف على ذاته، لكن من الضفة المقابلة، حيث لا فشيلة ولا طهارة، لا جوهر ولا مثال، إنما رياء ونفاق ورذائل لا حدود لها طالما نحن من صنف كائنات ملعونة، لا صفاء فيها. فلسنا أجساد، ولا نفوس، ولا عقل، حيث تتعين حياتنا في العلامة الصراعية المتذبذبة بين كلا الوجودين، لا، بل ذهب إلى أن "العقل يلعب دور

معكر الصفو بالنسبة إلى كل أفعال الحياة"[3]، وبهذا المعنى تغدو البهيمة أكثر بساطة وأعلى سموًا، طالما أن الجوهر بسيط، فهي أكثر تجوهرًا من المركب الأدمي المحبوس في جبلة إنسان، ملعون إما بسبب الخطيئة الأولى المتمثلة بتفاحة حواء في الديانات الإبراهيمية، وإما لجحوده أو لعصيانه في حياة سابقة عند المؤمنين بالتناسخ أو التقمص. وفي هذا السياق نستنطق سيوران بالذي لم يبح به كلامه، ليس لعدم صراحته، وإنما لشدة غضبه من هذا الرياء الذي يلف العالم ويغلفه بكم من الضلالات المتلطية خلف اعتدادنا بامتلاك عقلٍ، وظيفته تقتصر على إخفاء الحقيقة.

لا بد لـ سيوران من أن يكون ممسوسًا، على وجه الافتراض المنطقي، بالسمة التي تدمغ إنسانيتنا بالنسيان، حتى لو أنكر ذلك، فالإنسان ينسى، ولأنه كذلك فإنه "يشعر بأنه منذور للقيام بأمور عظيمة، وينجح أحيانًا في ذلك، هذا النسيان ثمرة الشطط، هو في الوقت نفسه سبب شقائه. (أيها الفاني فكر مثل فان). لقد استنبطت العصور القديمة التواضع التراجيدي"[4]. لا شك أن سيوران مارس الشطط ونسي نفسه. أقله حين ألف كتابًا للقراءة، لم يمزق مسوداته ولم يلذ إلى عالمه القصي قبل أن يتلاشى، لقد ترك لنا مكتوبه أثرًا على سوداويته، أراد لتشاؤمه أن يتحول إلى بيرق الفئة المهمشين، تذكر أنه فان في لحظة كتابته هذه الشذرة، وناسٍ لفنائه عندما نشرها لنا... فارتد عن التواضع التراجيدي للعصور القديمة. بالتأكيد لم تبهره حداثة النشر، ولا هو بساعٍ إلى نجومية الأضواء، حتى وإن جرفه الارتداد إلى إغواء الشهرة نحو العالم الذي كتب ضده، فهذا، ربما، ليستمتع بمرأى فجيعة الناس بخديعتهم. "التخلص من الحياة حرمان من سعادة الاستهزاء بها. الرد الوحيد الممكن على شخص يعلمك بنيته وضع حد لحياته"[5]. يقرّ هنا سيوران إذا في اعترافاته ولعناته المرسومة فوق صفحات كتاب، بأن لديه ما يستحق أن يعيش لأجله. إن الاستهزاء سعادة، كل ما يضفي على الحياة قيمة عظمى، ينطوي على متعة كمتعة المتفرج على مسرحية كوميدية، ليس فيها تراجيديا أكثر من نيسان الممثلين لأنفسهم وهو يمثلون على أنفسهم. بهذا المعنى، كل شطحات سيوران وانسلاخاته ليست سوى تأكيد صارم على انتمائه الحر إلى فضاء التفكير بالأسلة الكلاسيكية للفلسفة التقليدية.

يلاحق أسئلة الفلاسفة الأوائل ويجيب عنها على طريقته، يفكر بمعنى الحكمة وقيمتها، ليخلص إلى التالي: "فلان يشتمني، استعد لصفعه. بعد التفكير أمتنع عن ذلك.. ما نسميه حكمة ليس في آخر التحليل سوى تكرار أبدي لما بعد التفكير، أي أنه اللا فعل كحركة أولى"[6].

لا تُفهم مزاعم سيوران المنددة بالتقليد الفلسفي على أنها إنكار ورفض للفلسفة بذاتها، وإن عبر بصوت صارخ عن رغبته في التحرر من هيمنة تراث فلسفي، استحوذ على من مثله من الساخطين والمتمردين، فهذا لأنه يريد التحرر من أسر الفلسفة التي سلبته على النحو الذي ينبو من تعريفه لماهية الحكمة.

تلبَّستْ الفلسفة شخص سيوران إلى حد نشوة الصوفيين بالحالة إياها، فإذًا هو مريد أحوال وليس مُعِد أقوال، لذا، أعمد إلى الاقتضاب غير شذرات قلّ فيها الكلام وكثرت فيها المعاني. لم يهتم بقواعد النحو في اللغة بقدر ما اهتم بالمرمى السيميائي لمنطوق الكلمة، لغمزها، لوشيها، غايته استنباش معنى خبيء عصي على اللغات كلّها، تعبيراته كامنة في المؤدى وليس في الكلمة، فالمدلول عنده التف خلف المنطوق ليتربص بالنبرة، بالهيئة، وبكل ما جسدته كلمة، عليك أن تتماهى مع حالة كاتبها، لكي تدرك الشيء الذي يجعلك تفهم نفسك، وهل من تعبير أدلّ من تلك الحالة التي عنتَّها سكر التحسس من مشهد أخآذ لمياه تجري، ولا يمهنا ما إذا كان ينظر إلى البحر أو النهر، إلى نبع أو ساقية، طالما أنه حكى الحكاية الوجودية كلها في ثلاث أو أربع كلمات فقط فعنون كتابه "المياه كلها بلون الغرق"[7]. اختصر دفائنه كلها، صدماته وانفعالاته أيضًا، لماذا لم ينجب؟ ولِمَ ينجب؟

وشى برأيه في السياسة وفي الاجتماع، حتى موقفه من أنصاف المفكرين وأشباه الصحفيين لم يسلم من غمزه الصاعق، فبأقل الكلمات كشف عن أدق التعقيدات. لم تستهوه المطولات ولا الكتابة النسقية أغوته الحالة. ترك لجوانياته أن تُزبِد نفسها في ما يشه كلمات، إن عبرت عن شيء، فهي تعبّر عن حالة عصية على التطابق مع كلمات الدنيا كلها. وإذا جاز لك أن تصفه بالصوفي، فإن صوفيته من نوع آخر مختلف عن شطحات الحلاج المستلبة من أصلها إلى انتماء ديني، يُقاس عليه شططه عن موجبات الالتزام بالإسلام، وكذلك ابن عربي. أما سيوران فليس محكومًا بأي انتماء، لا بل كرس حياته بأكملها للتنديد بالالتزامات التي كبلت سلوكنا بكم من الاعتقادات الخاطئة. لكن في الحالتين ثمة توق عنده للذوبان في حالة تمثلها "رغبة المتصوفة الكبار في التهرّب من الله، من حدوده ومأسيه،

للفناء في الألوهية"[8]. وإذا كانلا بدَّ من قياس ما، فبإمكاننا القول إن سيوران "صوفي الفلسفة السقراطية"، خاصة وأنه شط عن مبتغى فضيلة المؤسس الأول (سقراط)، بحثًا عن فضائل البشر في قماماتهم وفضلاتهم. وفي كل ما أقصى وأهمل لضرورات المفاضلة بين السامي والوضيع، بين الخير والشر، أي بين ما تشترطه ضرورات هذه المعادلة المانوية من تقسيم/حكم تفلسفنا لقرون طويلة من دون طائل.

نَبَشَ سيوران إضبارة الوجود التاريخي للمجتمعات، فلم يجدها أبدًا محكومة بالحاجة إلى التعاون في عقد اجتماعي لتأمين حاجاتهم المادية والمعنوية، فالتعاون المزعوم ليس سوى ذريعة أو مطيّة، من أجل غاية متربصة في كل إنسان ليس لديه نشوة أكبر من التسلّط والإستحواذ. وإن كان "ثمة بعض السعادة في التكالب على التشهير بهشاشة السعادة. كذلك الأمر حين نجاهر باحتقار المجد ونحن على علم برغبتنا فيه"[9].

مكاشفة سيوران ههنا تماثل في راديكاليتها فضائحية نيشته، وإن كان الثاني هو المعلم في الضرب على مدماك عمارتنا العقائدية التي تأسست على ما يجب هدمه كشرط لإعادة التصويب. إلا أن سيوران ذهب بالمنطوق النيتشوي إلى حده الأقصى، اعترف بذلك أم لم يعترف، فهو نيتشوي الهوى في نزعته إلى التدمير بلا أسف. طالما أن الاعوجاج ينخر البنيان، فلنعمد إلى تقويضه من أساسه. إن السلطة التي كشف نيتشه عن خبث تخفيها في أقنعة مثل الرحمة والتسامح والغيرية، ليست أكثر من ضلالات ضرورية، وذر للرماد في وجه الاجتماع القائم على كم من الرياء البغيض. أقنعة هي نفس السلطة التي اعتبرها سيوران محورًا لرغبة البشر في الاستئثار. "مَنْ لم تغوه الرغبة في أن يكون الأول في المدينة، لن يفقهَ شيئًا في اللعبة السياسية، ولن يفهم شيئًا من إرادة إخضاع الآخرين لتحويلهم إلى أشياء.. "قليلون هم أولئك الذين لم يشعروا بالظمأ إلى امتلاك السلطة"[10].

على كل حال، أقرّ سيوران صراحة بتأثره بنيتشه مع العديد من أبناء جيله، ليس لأن فلسفته كانت هي الموضة المهيمنة على سوق الفلسفة، ففي زمنه، زمن الاشتراكية العلمية، لا شيء أهم من الماركسية والأفكار الاشتراكية والثورة والحرية... إلخ. مع أن "الموضة الفلسفية تفرض نفسها تمامًا مثل الموضة في الطعام: لا تُدحض فكرة أكثر مما تدحض صلصة"[11].

وفي المرات النادرة التي ذكر فيها سيوران ضمير الـ نحن كان هذا للتدليل على مكامن تأثره بنيتشه، وتتلمذه على هذه المشاكسة المُسلية، على خيباته بالفلسفة وحماسه لها. والتي أسست لنوع من التفكير المتفلت من قبضات هذا المصارع الفلسفي العظيم الذي ساهم هو نفسه بزرع نبتة التمرد عليه وعلى الفلاسفة كلهم من قبل تلامذته.

ويبدو أن سيوران كان من أشدّ التلامذة المؤتمنين على الذهاب بالقول النيتشوي إلى حد استنطاقه بما سهى عنه نيتشه، أو تراجع عنه إنسانه الأعلى في خضم سقطاته النفسية والفكرية غير المفهومة. ففي معرض حديثه عن نقصان التجربة التي تدفع إلى ممارسة الفلسفة "ليس بحثًا عن رؤية بل بحثًا عن محفز"[12]، وأردف يقول: "في نيتشه كنا نحب زرادشت، وضيعاته المتكلفة، تهريجيته الصوفية.. لقد اعتقدنا مع نيتشة بديمومة الشطح. وبفضل نضج كلبيتنا ذهبنا إلى أبعد مما ذهب إليه. فكرة السوبرمان لم تعد في نظرنا غير هذيان... نحن نقيس خصوبته بالإمكانيات التي تركها لنا كي ننكره باستمرار دون أن ننفد منه... المهم أن نيتشه استطاع بالكشف عن هيستيرياته أن يخلصنا من الخجل بهيستيرياتنا. كان شقاؤه مفيدًا بالنسبة إلينا. لقد دشن زمن العُقَد"[13].

من بعد نيتشه صار سيوران يتباهى بعِقَده النفسية، يعلنها على الملأ بغرور شخص أدرك نواقصه المتخفية في كل واحد منا، أناه معتزلة بأعتى رذيلة، تمثلها التورية والاحتجاب الذي ينغص حياة الناس بالجهد المبذول لإخفاء نواقصهم.

لقد دشن نيتشه زمن العُقَد، فاستفاض سيوران في نبش عُقَده حتى صار متخصصًا بمكاشفة مستور الحالات السوية التي صارت تثير شهية تَمَعُّنه بخفاياها أكثر من غيرها، نظرًا إلى جاذبية العُقَدَ الدسمة المتلطية خلف ربطات العنق، والهندام النظيف، والتسريحة المرتبة، عند أي رجل نسي نفسه ليتقن فن تقديم نفسه بالصورة التي يظهر عليها غالبية رجال السياسة ومعظم رجال الأعمال وكل صحفيي الشاشات التلفزيونية.

إذا أخذنا على محمل الجد ولمرة واحدة، تصور العامة في تمييز صفات الفيلسوف عن سائر أفراد الناس، سنجد اجتماعًا على عقد الفيلسوف النابية، بطريقة تُفسِّر عدم مجاراته الاعتبارات الاجتماعية للقطيع، وتوضح علة انزياحه عن الاعتقادالمهيمن على سلوك المؤمنين بنيل حياة

أبدية، بسبب طمعهم، ولشجعهم الذي يتجاوز حدود الاكتفاء بنيل شيء من الرضى في حياة الدنيا.

لم نُسْهب في الوقوف على ما يتعين فيه مقام الفيلسوف في ذهن العامة من عقد نافرة، يقترن وجوده بوجودها؟ لنقل ـ وبحسب هذا المعيار ـ إن سيوران فيلسوفًا بدون أدنى شك، إلا أن هذا التصنيف يقوم على مغالطات المنطق الصوري ما يفضي إلى القول أن كل مجنون فيلسوفًا بالقوة. ولم لا؟ فإذا كان الجنون إدراكًا مخالفًا للمتفق على استقامته عند الجماعة، فكل فيلسوف مجنون. أما من كان بعكس ذلك، فيحتاج إلى النظر في جنون ديوجين عندما خرج مع مصباحه في عتمة الطرقات للتفتيش عن الحقيقة الضائعة. وبهذا المعنى، إن جنون سيوران إذا ما اتفق عليه، هو بمثابة تجاوز للسوي، إنه تخط إلى ما يصيب صاحبه بالخوف من وحدة قاتلة، ولعل في هذا الجنون بالذات تتفسَّر لنا رغبة سيوران باستمراره في العيش دون أن... دفاعه عن علة الجنون، "هل يمكنني تحمل العيش يومًا واحدًا لولا كرم جنوني، هذا الذي يعدني بأن القيامة غدًا"[14].

لعل البشرية كلها تعيش تحت مظلة هذا الجنون،... تقسهم من ضغط الحقيقة المنغصة، فكيف للعالم أن يستمر من بعدي؟ كيف للشمس أن تشرق ببهاء نورها؟ كيف لزهر الكرز أن يتفتح مع بداية فصل الربيع؟ كيف لجمال العالم أن يصير لغيري؟ لولا إيمان الجمع الغفير بحتمية القيامة المُرجأة إلى حين استنفاذهم متع الحياة التي لا نتقبل تركها هكذا بلا قناعة إما بالقيامة غدًا، وإما بما يجعل الآخرين يؤمنون بأنهم أدوا ما عليهم لينالوا أبدية أجمل في مكان آخر، ربيعه أجمل وشمسه أبهى و... إلخ.

حساسية سيوران مفرطة حيال كل الإجابات المكرسة عن الأسئلة الصعبة، ولأن الاستحالة ممنوعة طبقًا لحاجة الناس إلى حلول ناجزة، عمدوا إلى الإيمان بما لم يؤمن به سيوران، ليس لأنه لا يريد وإنما لأنه أصيب بلعنة هذه الحساسية التي تحول دون انصياع صاحبها إلى حكايات الأقدمين هؤلاء المنسجمين مع ما قرره لأنفسهم جيدًا مع قديمهم. أما الحاضر فله مستوجبات الـ آن... والـ هنا...، أما الـ هناك المنصرم فليس له من أهمية أشد من اتخاذه مثلًا على ما كان يفكر به الأقدمون حيال الأسئلة نفسها في زمن مغاير.

لم ينطلِ على سيوران عتق الأيقونة، ولم تغره هالة القديسين في سؤاله لنفسه: "ولماذا لا أقارن نفسي بأكبر القديسين؟ هل صرفت جنونًا في إنقاذ تناقضاتي، أقل مما صرفوه في تجاوز تناقضاتهم؟"[15]. أدرك سيوران جنونه، إلا أنه لم يرتكب الشيء الذي طوب القديسون قديسين! فهو بعكسهم، لاذ عن الناس وازدرى اهتماماتهم، أما هو فانكبوا عليها بحماسة أنستهم التطلع إلى ذاك الصفاء الخالص الموجود بعيدًا عن هذا العالم. لذا، صاروا هم قديسي الأرض، بينما صار هو قديس السماء، ولا يهمه إن تعرف عليه أحد أم لا، طالما أنه مقتنع بوجود عالم أجمل من دون قديسين ولا أنبياء.

لماذا كتب سيوران إذًا؟ لماذا ألف لنا كتبًا؟ لم يكن من الأجدى له أن يتسكع على ضفة نهر أو ساقية لمراقبة فند شجرة الدفلى وهي تتدلى، تتهادى فوق جريان المياه؟ ما الحكمة من نشر مؤلفاته لنا؟ وهل كان يسير على منوال العديد من الفلاسفة والكثير من الأنبياء وكل القديسين الذين تركوا لنا أثرًا كتابيًا لتكريسهم على ما ليسوا هم فيه؟ هل تراجع سيوران عن اتهامهم باعتبارهم منتحلي صفة ليحل محلهم بسبب طموح مخدر يجعل مدمنه مجنونًا كامنًا قد يكشف عن نفسه في أي لحظة". "تلك السمات... تلك الملامح القلقة التي تبدو مشحونة بنشوة دنيئة، إنها أعراضا بدَّ أن يلحظها أحدنا على نفسه أو على الآخرين، وإلّا ظلّ في غفلة عن لعنات السلطة، ذلك الجحيم المنشِّط، ذاك الخليط من السم والترياق"[16].

يسجَّل لـ سيوران هنا اعترافه بدناءة إغواء السلطة لبني آدم عمومًا، ولهذا صب جام غضبه على تنكر كل من يزعم بغيرية، تُخفي في طياته أعتى الأنانيات، يرتاب مِنْ أي تبجيل، ويشكك في كل متسامٍ. يبغي سيوران الصراحة، لأن المواربة قد أسست ـ بحسب رأيه ـ لتراث عريض من النفاق الحضاري القائم حتى يومنا هذا. وما يساق من تسامح ومحبة وتآلف وتآزر لحماية كبار السن مثلًا، لن يرتقي إلى صدق القتل الرحيم للعجز في الحضارات القديمة، ومبادئ حقوق الإنسان هي كذلك، ليست كابحة لدناءة الإنسان الفطرية. إنما هي واجهة تورية أخس من أن تحاكي بهيمية توقنا إلى التسلط والانتقام. مدفوعين بالحسد، "يغادرك الحسد فإذا أنت حشرة، لا شيء، ظل أو مريض. أما إذا دعمك الحسد فقد ظفرت بمن يقبل عثرات كبريائك ويسهر على مصالحك وينهضك من خمولك ويجترح لك أكثر من معجزة. أليس غريبًا أن يسكت الطب والأخلاق عن محاسن الحسد في حين أنه أكثر رحمة من العناية الإلهية وأنه يسبق خطانا ليوجهها؟"[17] أكثر ما يلفت الانتباه في هذا

السياق السيوراني لتوصيف الحسد، هو أن وصف الآخر بالحسود لا يعتبر تقليلًا من شأنه، ولا تبخيسًا من قيمته، إنما هو إعلاء ملعون ومقصي عند كل الحاسدين الذين ليس لديهم همّ أكبر من إخفاء حسدهم، فسيوران بهذا المعنى هو الحاسد الأكبر لأي قديس استأثر بألباب المؤمنين، يُصلّون له لنيل شفاعته والحصول على بركته المقدسة إلى يوم الدين.

كان سيوران يتمنى أن يعيش في عالم آخر "في أزمنة أخرى لم يكن الفيلسوف الذي يفكر دون أن يكتب معرَّضًا إلى الاحتقار، منذ أصبحنا ننحني أمام الجدوى والفعالية أصبح الأثر بمثابة المطلق بالنسبة إلى السوقي، وأصبح من الدارج اعتبار الذين لا ينتجون أثرًا، فاشلين، هؤلاء الفاشلون الذين قد يكونون حكماء في زمن آخر، كافون لمسح ذنوب زماننا هذا، فقط لكونهم لم يتركوا فيه أثرًا"[18]. هل أجاب سيوران في هذه الشذرة عن سبب تركه لنا أثرًا عما كانته أحواله، عما فكّر فيه، عما لم يفكر فيه، عبر مكتوب فرضه مقتضى السوق؛ سوق الاعتراف بالفيلسوف على أنه كذلك؟ على أن سؤالًا كهذا يستتبع استنباطًا مشروعًا؛ هل ما نقرأه في كتب الفلسفة هو من الفلاسفة المدَّعين؟ ومن لا نقرأه هو الفيلسوف الحق؟ إنها لمفارقة منسجمة مع الحس التهكمي لسيوران الذي اعتمد الكتابة الشذرية، ليس لأنه كسول، وليس لأنه شخص كاره للمطولات التي تسهب في الشرح. كيف أن لون اللبن أبيض، وكيف أن المرأة تحبل والرجل لا يحبل أبدًا، أجاب بلسانه عن ـ (لماذا الشذرات؟) هكذا عاتبني ذلك الفيلسوف الشاب. "(بسبب الاستهتار، بسبب القرف، وكذلك بسبب أمور أخرى...) ولما لم أجد سببًا آخر، اندفعت في شروح مسهبة بدت له جدية وانتهت إلى إقناعه"[19]. هو ذا درس في السيمياء وفي الاقتضاب، وذلك للتدليل على المعاني المضمرة فيما لن يقوله سيوران إلّا على طريقته، ساخرًا من تصنيفاتا ومن تبجيلاتنا ومن مدارسنا التي أحالت ما لا نؤمن به كفرًا وهرطقة.

أين سيوران من قبله نيتشه مِن موضة الاقتضاب الدارج في عالم الفيسبوك، فعبّروا عن رأيهم من خلال شذرات عبرت عن انسجامهما مع كم هائل من المواقف والآراء العصية على التظهير في الشكل والأسلوب النسقي لـ هيغل والكثير من أصحاب الفلسفات التقليدية.

لقد تشظت شظايا التدمير النيتشوي والهدم السيوراني في كل الاتجاهات، فتشذرت الحقيقة إلى حقائق، وانشطر المبتغي إلى ما بات يُستَدل من خلاله على علة الاستلاب التاريخي إلى نوع من التفكير بأشياء. أقصت ما لم يفكر به وذلك لضرورات غير واعية بما سيكتشفه تفكير لاحق.

وهكذا، فالأسباب التي ساقها سيوران للإجابة عن لماذا الشذرات؟ جعلتني احترم صراحته في هذه المواربة التي عدّد فيها أسباب كثيرة، تهرَّب فيها من ذكر العُقَد التي شحنت وعيه بغضب فجّر فيه نزق الفيلسوف ودفعه إلى الانفعال والعواء الكلبي الغاضب. الأمر الذي يجعل الحكم على فلسفة سيوران غريبًا عن معايير تقييم الفلسفات التاريخية. فبالتماهي مع سخط سيوران وحنقه على هذا العالم المعوج يمكن أن يتقط ذاك الخيط الرفيع الذي يربط تعدديته، تنوعه، تشظيه، وتشذّره في وحدة متماسكة، وصقيلة، وشفافة، وغير مرئية.

د. نديم نجدي

الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الهوامش

(1) سيوران. مثالب الولادة. ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت: 2015، ص: 245.
(2) المرجع نفسه، ص 207.
(3) المرجع نفسه، 59.
(4) سيوران، مثالب الولادة، مرجع مذكور، ص 206.
(5) سيوران، اعترافات ولعنات، تر: آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت: 2018، ص: 55.
(6) سيوران، مثالب الولادة، مرجع مذكور، ص 27.
(7) سيوران، إميل، المياه كلها بلون الغرق، تر: آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت: 2003، ص: 76.
(8) سيوران، اعترافات ولعنات، مرجع مذكور، ص 64.
(9) سيوران، تاريخ ويوتوبيا، تر: آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت: 2010، ص: 104.
(10) المرجع نفسه، ص 67.
(11) سيوران، إميل، المياه كلها بلون الغرق، مرجع مذكور، ص 51.
(12) سيوران، إميل، المياه كلها بلون الغرق، مرجع مذكور، ص 60.
(13) المرجع نفسه، ص 61 – 62.
(14) المرجع نفسه، ص 58.
(15) المرجع نفسه، ص 56.
(16) سيوران، تاريخ ويوتوبيا، مرجع مذكور، ص 68.
(17) المرجع نفسه، ص 73 – 74.
(18) سيوران، إميل، المياه كلها بلون الغرق، مرجع مذكور، ص 63 – 64.
(19) سيوران، اعترافات ولغات، مرجع مذكور، ص 149.